حياة محمد

نبي الإسلام

سيرته - دعوته - كفاحه

دكتور عز الدين فرّاج

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص. ب. ٦٥٨٥

حياة محمد

نبيُّ الإسلام

حياة محمد

نبيُّ الإسلام

سيرته - دعوته - كفاحه

دكتور عز الدين فرّاج

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص.ب ٦٥٨٥

جميع الحقوق محفوظة لـ
دار الرائد العربي
بيروت ـ لبنان

الطبعة الثانية
١٩٨٤ م ـ ١٤٠٤ هـ

العرب قبل الاسلام

كان العربُ قبل دَعوةِ سَيْدِنا محمدٍ إلى الإسلامِ في فَسادٍ وفَوضَى وعِراكٍ وَوحْشيَّة، وكانت قَبائلُهم تَدخُل في حُروب مع القَبائلِ المجاورَةِ، من غَيرِ انقطاع، وبلا سببٍ معقول.

وكانت الأصنامُ عند العرب قبل الإسلام مَعبودةً كلَّ العبادة، ومحبوبة كلَّ الحب، ومُحترَمةً كلَّ الإحترام، ومُقدَّسةً كل التَّقْديس.

كانوا يُقدِّمون إليها القَرابين، ويَحرِقون حولَها البَخور، ويركَعُون لها ويَسجُدون، ويُصَلُّون، ويَنْحنُون أمَامَها في خُشوعٍ.

كانت الأصنامُ خَرساءَ لا تَنطِق، وصَمَّاءَ لا تَسمَع، ومع ذلك كانت تُوحِي إليهم بكلِّ شَر، وكانت تُفْسِدُ عليهم كلَّ شيءٍ في الحياة.

وكانت من القوةِ بحيثُ لا يستطيعُ أحدٌ أن يَذكُرَها بِسُوءٍ، وكانت من القُوةِ لَدَيْهم، بحيثُ يتَصَوّرون أن تزول الجبالُ ولا

تَزول، وهكذا فَعلت الأصْنَامُ بعقول العربِ قبلَ الإسلامِ.

وكان للأصْنامِ كهانٌ يَتكلّمُون عنها ويَأمُرُون بِلسانِها، ويُبلِّغُون عَبيدَها ما يُّريدُون.

وكانوا يُؤمِنون بالأَرواحِ الشِّرِّيرةِ ويَنسبُون إليها ما يُصِيبهُم من مَرضٍ أو مصيبةٍ أو بَلاء.

كان الجهلُ عِندهم مُنْتشِراً، وكانوا يَعتقِدون أن الرّوحَ عندما تَتْرك الجسم بَعد الموت، تأخُذُ شكلَ طائرٍ يُشبهُ البُوم، لا يَتركُ قبرَ الميِّت، يُخْبِره بأخبارِ أبنائِه وأَهله.

وإذا مات الواحِدُ منهم مقتولا كان هذا الطائر يَتردّدُ عليه قائلا: اسُقوني... اسْقوني. ويَظلُّ يُردِّد هَذهِ الكلمةَ حتى يَثْأَرَ له أهلُه من قاتِلِه بقَتْلِه.

وكانت الرَّذيلةُ منتشرةً، والشرُّ محبُوباً، والفحشاءُ مُباحَة. وكان شُربُ الخمرِ والرقصِ ولَعِبُ القِمار من عادَاتِهم المعروفةِ التي تُلازِمُهم ليلاً ونَهارا.

وكانت المرأةُ عند العربِ قبل الإسلامِ، سلعةً تُباعُ وتُشْتَرى، ولا يَهمُّ الرجلَ ما يصيبُ الأسرةَ من ضعفٍ وفقرٍ وبؤس ومرض، ولا يهمه ما يُصيبُ الأبناءَ من بَلاء. وكانت المرأةُ تُورَثُ كما تُورَثُ الحيواناتُ وأثاثُ البَيت، وكانت لا تَرثُ شيئاً من أموالِ الأهلِ والأبناء.

وكان القويُّ يَتحكمُ في الضَّعيف، والغَنيُّ يُسَيْطِرُ على الفقير، والسَّيدُ يَقْسُو على العَبِيد.

وكَانَ الْعَرَبُ قبلْ الإسلاَمِ يَقتُلُونَ البَنَاتِ خَوْفاً مِنَ الفَقرِ والْعَارِ، وَيَدفِنُونَهُن فِي التُّرَابِ وَهُنَّ عَلَى قَيدِ الْحَيَاةِ، مِن غَيرِ ذَنب ارْتَكبْنَه، فَحَرَّمَ الْإِسلاَمُ ارتِكَابَ هذِهِ الْجَرِيمَةِ الْقَبِيحَةِ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ[1] سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾.

وكان الرِّقُّ مُنتشِراً في جَميعِ أنحاءِ الدنيا، لم تَسْتطِع مَدنيةُ الرُّومان، ولا فلسفةُ اليُونَان، ولا حِكمةُ الفرس أن تُلغِيَ هذا النظامَ الظَّالِم.

كان الرقيقُ ذَليلا ـ وهو إنسان ـ لا يأكلُ مع سيِّدِه، ولا يَستطيعُ أن يَمشِيَ بِجانبِه أو يَجلسَ بِجواره.

كان الرقيق مُحتَقَراً لا قيمة له عند سَيِّدِه، إن شَتَم حُرا قُطِع لِسانُه، أو أُدخِلَ في فَمِه خِنجرٌ مُحمى، وإن سَرَق سَيِّدَه أحرقَه، وكَثيراً ما كان يَجلِدُه أو يَكويهِ بالنار، أو يُعلِّقُه بالطاحونة ليُديرَها لأقلَ الأخطاءِ والأسْبَاب.

وكان لا يستطيعُ أن يَتَزَوَّجَ من الأحْرار، وكانت الحُرةُ التي تَتـزوجُ عبدا تُسْتَعبَدُ، وكذلك الحرُّ إذا تزوّج عَبدةً يُعامَلُ وَلَدهُ منها مُعَامَلَة العبيد.

---

(١) الطفلة التي كان يدفنها والدها في التراب وهي حية.

وكانت شهادةُ العَبد لا تُسْمَعُ، وكان لا يُؤخذ رأيهُ في وَضعِ نظامٍ أو قانون، ولا حَقَّ له أن يَتكلمَ في أيِّ موضوعٍ يهمُّ الأحرار.

وكان اليُونانيون والرُّومانيون فيما مَضَى يَعُدُّون الامَمَ المَغْلوبةَ عبيدا.

وكان بعضُ شعوبِ القُوقَازِ قديماً يتَخطَّفون النساءَ والأطفالَ لِبَيْعِهم في سُوقِ الرَّقيق.

★ ★ ★

وفي عامِ ٥٧٠ ميلادية حاول «أبرهةُ» عاملُ النَّجَاشِي مَلكِ الحبشةِ أن يَصرِفَ العربَ عن الكعبةِ إلى ما أسْماه وَقْتَئذٍ «بَيتَ اليَمَنِ» ليَحُجُّوا إليه بَدلا من الكَعْبة، ولما فَشِلت مُحاولاتُه قَرَّر هَدمَ الكعبةِ أول بَيت وُضِعَ للناسِ، والذي رفع قواعِدَه إبراهيمُ وإسماعيلُ؛ ليكونَ مَثابةً للناسِ وَأمْناً. وزحف «أبرهةُ» بجيشِه وفِيله إلى مكة، ظنًّا منه أن تَحطيمَ الكعبةِ سهلٌ، وتوجه «عبْد المُطلب» على رأس وفدٍ من قُريش إلى «أبْرَهة» لِيُغْرِيه بالمال، ولكنه رَفَضَ، وذهب إلى الكَعْبةِ برجَالِه وأسْلِحَتِه وفِيلِه الكَبير.

قَالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ زَعِيمُ مَكَّةَ لقومِه: لاَ تَخافُوا، إنَّ الْكَعْبَةَ بَيْتُ الله واللهُ يَحْمِيها.

نامَ الأَعداءُ يَنْتظِرُون الصَّبَاحَ، لِيَهْدِمُوا الْكَعْبَة.

قبلَ أن يَأْتِيَ الصَّباحُ، هَزَمَهم الله.

أرْسَلَ اللهُ عليهمُ البَلاَءَ مِن السَّماءِ، فَهَلَكُوا جَميعاً، ولَمْ يَهدِمُوا الْكعبةَ.

سَمعَ عَبْدُ الْـمُطَّلِب بما جَرَى لِلأَعْداء.
وَأَخَذَ يَقُولُ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ مَعَه:
سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَاللهُ أَكْبَر.

ووصَف الله تَعالى ما لَحِقَ بجيش «ابْرَهَة» فجاء في كِتَابه العزيز.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ★ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ★ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ[1] ★ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ من سِجِّيلٍ[2] ★ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[3] مَأْكُول﴾[4].

وفي نَفسِ العام الذي حَمَى فيه اللهُ كَعْبَتَه، وُلد محمدٌ ﷺ ليكونَ نُوراً وهُدَى للعرب وهدايةً للنَّاسِ أجْمَعين.

---

(١) أبابيل: جماعات كثيرة يتبع بعضها بعضاً.
(٢) سجيل: الطين المتحجر.
(٣) عصف: تبن ـ ورق الزرع.
(٤) أكله الدود والسوس، أو أكلت الدواب بعضه، وتناثر من بين أسنانها بعضه.

أراد « أبرهة » أن يحطم الكعبة بفيله ، فهلك هو ورجاله .

مولد النبي

وُلِد النبيُّ ﷺ يَوْمَ الإِثْنَينِ لاثْنَتَيْ عَشرةَ ليلةً من شهرِ ربيعٍ الأَولِ من عامِ الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية.

وَلَدَتهُ أُمُّهُ «آمنةُ بنتُ وَهب» يَتِيمَ الأبِ، إذْ مات أبوه «عَبدُ اللهِ ابنُ عبدِ الـمُطَّلِب» وهو جَنِينٌ في بطنِ أمِّه، وكان ذلك في أثناء رِحْلةٍ تِجاريةٍ، قام بها الأبُ الشابُّ إلى غَزَّة في بلادِ الشام.

ولما وَلَدتهُ أُمُّه، أَرْسَلَت إلى جَدِّه «عَبدِ الـمُطَّلِب» تقولُ له: لقد وُلِد له غُلامٌ، فجاء لِيَراه، ويَسْعَدَ بِطَلْعَتِه، ثم دَخَل به الكعبةَ، وشَكَرَ اللهَ لما أعطاه، ثم رجع به إلى أُمِّه لِيُعِيدَه إليها.

وفَرِح به جَدُّه «عَبدُ الـمُطَّلِب» فَرحا عظيما، وسَماهُ «مُحمداً» وكان هذا الإسمُ نادراً بين العرب، إذْ لم تَعرف العربُ مَن تّسمَّى بهذا الإسم قبلَ الرسولِ إلا ثلاثة، تَمنَّي آباؤُهم حين سَمِعوا بقُربِ بَعثِ نبيٍّ في الحجازِ اسْمُه محمدٌ أن يكونَ لهم خاصّة.

وكان لا بدَّ أن يُعهَدَ بِكُلِّ طِفْلٍ من قريش إلى إحَدى

مُرْضِعاتِ البادِيَة، وقد كانت هذه العادةُ معمولاً بها منَ بعيدٍ عندهمْ.

وجاءتْ مُرْضِعاتُ بني سَعدٍ من البادية إلى مَكة، وجاءت معهم حَليمةُ السَّعديةُ، وأعْرَضَ أغلبُ المُرضِعاتِ عن محمدٍ اليتيمِ الفَقير، مقبلاتٍ على أطفالِ الأغنياءِ من قُريش، واضْطرَّت «حليمةُ السَّعديةُ» في آخر الأمر إلى أخْذِ «محمدٍ» خَشْيَةَ أن تعودَ إلى الباديةِ بلا طفلٍ، فَتشمَتَ بها باقي المُرضعاتِ.

وأَقام محمدٌ في الباديةِ وفي بني سعد بن بكرٍ أربَع سنوات. وكان في خِلاَلِها موضعَ رعايةِ «حَليمة» التي أرضعته، وابنتِها الشَّيماءِ التي حَضنْته، وأبنائِها الذين رَافَقوه ولَعِبوا معه. وقد كَسَب محمَد ﷺ الكثيرَ من البَادية، نذكُرُ من ذلك ملَكةَ النطقِ واللغة، واشْتدادَ العودِ والبِنْيَة، وصفَاءَ الذِّهْن، وحَسْبنا أن نكررَ ما كان يُردِّدُه عليه الصلاةُ والسلامُ حينَ يقول:

«أنا أعربُكم: أنا قُرَشِيٌّ، واسْتُرضِعْتُ في بَنِي سَعد بن بَكر».

وعاد «محمدٌ» إلى مَكةَ وهو فَتىً في الخامسةِ من عُمرِه، لِيكتِملَ يُتمُه، ويَشتدَّ فَقرهُ، إذ فَقَد أمّه، وفَقَد بَعدها جَدَّه وولِّي أمرِه «عَبدَ المُطَّلِب».

أمَّا وَفاةُ أُمِّه فَوقَعَت في أثناءِ الرحلةِ التي أخَذَت فيها «محمداً»

ﷺ ، لزيارةِ أخوالِه من « بني النَّجارِ » في يثربَ (المدينة المنورة) وبالمكانِ الذي تُوُفِّيَ به أبوه. وقد تَرَكت وَفَاةُ أُمِّه أثَراً عَمِيقاً مُؤْلِماً في قلبِ « مُحمدٍ » يَظْهر في كَثرةِ حَديثِه عنها إلى صَحابَتِه فيما بَعدُ.

ومثلُ هذا الأثرِ تَركتْه أيضاً وَفاةُ جَدِّه « عَبدِ الـمُطَّلِب » في نَفسِه، فكان دائمَ البُكاء، وهو يُشيِّعُ جَدَّهُ إلى قَبرِه، وكان وَقتَئذٍ قد بَلَغ الثَّامنة.

وجَدُّه « عبدُ المطلبِ » هو ابنُ هاشمِ بنِ عَبدِ مَنافِ بنِ قُصيٍّ بنِ كِلاب. وقُصَيٌّ هو الزَّعيمُ العَربيُّ الذي وَضَع أمجادَ قُريش، وَجَمعَ شَملَها، ووحَّد كَلِمتَها، فَحَظِيَتْ بِالهَيْبةِ وشَرفِ المَنزلَةِ بين العرب جميعِهم.

وجَاء « عَبدُ المطلب » من بَعدِه، فاسْتَطاع بقُوةِ شَخصيتِه، أن يَتولَّى أبرزَ المَناصبِ في مَكة وهي:

« السِّدانة » وهي الإشْرافُ على الكعبةِ، و « السِّقايةُ » وهي تَوفيرُ الماءِ للحُجَّاج، « والرِّفَادة » وهي تَوفيرُ الطَّعامِ، والقِيَادةُ وهي إمارةُ القوم في القتالِ والتجارةِ، ولهذا قال النبيُّ صلّى الله عليه وسلَّم.

« إن اللهَ اصْطَفَى من وَلدِ إبراهيم إسماعيل، واصْطَفَى من إسماعيلَ كِنانَة، واصْطَفى من كِنانة قُرَيْشاً، واصْطَفى من قُريشٍ

بَني هاشمٍ، وَاصْطفانِي من بَنِي هَاشِم، فأنا «خِيارٌ من خِيارٍ من خِيار» أي من خيارِ الناس، وأعْلاَهم مكانةً، وأسْمَاهم مَنْزِلَة.

ومات جَدُّه عبد المطلب فتولَّى عَمُّه أبُو طالبٍ أمْره وقال له:

لاَ تَحْزَنْ يَا ابْنَ أخِي، أنَا لَكَ بَدَلَ أبِيكَ وَأُمِّكَ وَجَدِّك. لن تَحْزَنّ يَا مُحمدُ مَا دُمْتُ حَيًّا!

وَعَاشَ مُحمدٌ مَعَ عَمِّهِ أبِي طَالِب، يُحِبُّ عَمَّه، ويُحِبُّه عمهُ، حَتَّى كَبِر وَصَار شَابّاً، وفي شَبَابِه تعلَّم مُحمدٌ أنْ يَرْعَى الغَنَم.

وَعَرَفَ النَّاسُ جَميعاً فِي مَكَّةَ أنَّ محمداً أحْسَنُ رَاعِي غَنَم. قال لأصْحَابِه:

«ما بعثَ اللهُ نبيّاً إلاَّ رَعَى الغَنَم».

فقَالُوا لَهُ: وأنْتَ يا رسُول الله؟.

قال: «وأنَا رَعَيْتُها لأهْلِ مكّةَ».

ونشأ محمدٌ صَادِقاً لاَ يَكْذِبُ، وَكَانَ أميناً لاَ يغشُّ.

وَكَانَ عَطُوفاً لاَ يُخَاصِمُ أحَداً، وَكَانَ لَطِيفاً لا يَكْرَهُهُ أحَدٌ.

اشْتَهَرَ محمدٌ بينَ الناسِ جَميعاً بأنّه صَادِقٌ، وَأمِينٌ، ولَطِيفٌ، وَعَطُوفٌ.

أحَبَّهُ النَّاسُ جَمِيعاً.

وَوَثِقَ به النَّاسُ جمِيعاً.

محمد الامين

فِي يَوْمٍ مِنْ الْأَيَّام، أَرادَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُجَدِّدُوا بِنَاءَ الْكَعْبَة. وَاشْتَرَكُوا جَمِيعاً فِي تَجْدِيدِ بِنَائِها.

ثُمَّ أَرَادُوا أَنْ يَضَعُوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْكَعْبَة، فَاخْتَلَفُوا: مَنْ الَّذِي يَضَعُهُ؟ لِأَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، أَشْرَفُ قِطْعَةٍ فِي الْكَعْبَة.

وكَانَ لِلْعَرَبِ فِي مَكَّةَ زُعَمَاءُ أَرْبَعَة، يُؤْتَمَرُ بِأَمْرِهم.

قَالَ كلُّ زَعِيمٍ مِنْهُمْ:

أَنَا الَّذِي أَحْمِلُ الْحَجَرَ الشَّرِيفَ، وَأَضَعُهُ فِي مَوْضِعِه.

وَتَخَاصَمَ الزُّعَمَاءُ الْأَرْبَعة، وَكَادَتِ الْحَربُ تَقَعُ بَيْنَهُمْ.

قَالَ شيخٌ عاقِلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّة:

لاَ تَخْتَلِفُوا، وَلْيَحْكُمْ بَيْنَكُمْ أَوَّل قَادِم عَلَيْكُمْ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَة، دَخَلَ علَيهِم مُحَمَّدٌ صَلَّى الله عليه وَسَلَّم.

صَاحَ النَّاسُ جَمِيعاً فَرِحِينَ: هٰذَا هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِين، مُحَمَّدُ بنُ عبْدِ الله.

سَمِعَ مُحَمَّدٌ الْحِكَايَةَ، فَخَلَعَ رِدَاءَه، وَفَرَشَهُ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ وَضَعَ الْحَجَرَ الشَّرِيفَ عَلَى رِدَائِه، وَقَالَ لِلزُّعَمَاءِ الْأَرْبَعَةِ: لِيَحْمِلْ كُلٌّ مِنْكُمْ طَرَفاً مِنْ هٰذَا الرِّدَاءِ، فَحَمَلُوهُ جَمِيعاً، وَتَصالَحَ الْمُتَخَاصِمُون.

مَا أَعْقَلَ مُحَمَّداً، وَما أَذْكَاه!

زواج محمد

كَانَ فِي مَكَّةَ سَيِّدةٌ طَاهِـرَةٌ مِـنْ قُـرَيْش، اسْمُهـا خَـدِيجَة، وَكَانَتْ غَنِيَّةً وَشَرِيفَةً وَجَمِيلةً.

مَاتَ زَوجُها فَرِغِبَ كثيرٌ مِن أشْرافِ مَكَّةَ فِي زَوَاجِهَا، فَلَمْ تَرْضَ بواحِدٍ مِنْهُم زَوجاً من بعده، وآثَرَتْ أن تَبْقَى بِلاَ زَواج، فَأَخَذَت تُدَبِّر مَالَهَا أحْسَنَ تَدْبِير، فَكانت تُسَلِّمُه إلَى الْأَمَنَاءِ مِنْ رجَال قُرَيْشٍ، لِتُتّاجِرُوا لَهَا بِه.

وَفِي بَعْضِ الْمَوَاسِمِ قَالَتْ لِبَعْضِ أهْلِهَا: أُرِيدُ تَاجِراً أَمِيناً، يَذْهَبُ بِتِجَارَتِي إلَى الشَّام.

فَقَالَ لَهَا: لاَ أحَدَ أكْثَرُ أمَانَةً مِنْ مُحَمَّد.

فَدَفَعَتْ خَدِيجَةُ بعضَ مَالِهَا إلَى مُحَمَّدٍ لِيَتَّجرَ بِهِ فِي الشَّام، وَأرْسَلَتْ مَعَهُ غُلاَمَهَا مَيْسَرَةَ.

ذَهَب مُحمدٌ بِتِجَارَةِ خَدِيجَةَ إلَى الشَّام، فَبَاعَ وَاشْتَرى، وَرَبِحَ

مَالاً كَثِيراً، ثُمَّ عَادَ إلَى مَكَّةَ ومَعَهُ مَيْسَرَة، فَأَدَّى إلَى خَدِيجَةَ مَا اشْتَرَى مِنَ الْبِضَاعةِ، وَمَا رَبِحَ مِنَ الْمَال.

قَالَ مَيْسَرَةُ لِخَدِيجَة:

لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَباً يَا سَيِّدَتِي فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ. فِي الطريقِ كُنَّا لاَ نُحِسُ حَرَّ الشَّمْسِ؛ كَانَتْ غَمَامَةٌ تُظَلِّلنَا طُولَ الطَّرِيق، كَأَنَّهَا مِظَلَّةٌ عَلَى رُءُوسِنَا؛ فِي بُصْرى لَقِينَا رَاهِباً مِنْ أَهْلِ الشَّام، فَوَقَفَ يَنْظُرُ طَوِيلاً إلى مُحَمَّد، ثم سألني عنه، فَذكرتُ له صفاتِه وطهارتَه، فقال: إن مَن يجلسُ بجوارِ هذه الشّجرةِ، وتُظِلُّه هذه الغَمامةُ المُنخفِضةُ، وصفاتهُ ـ كما ذَكَرْتها لي ـ هي صِفَاتٌ للأَنْبياء... قد يكونُ النَّبيَّ المُنتظر.

وأكَّدت «خَديجةُ» هذا القَولَ، فقد كانت تَترقَّبُ الشابَّ الأمينَ «محمدا» وهو قادمٌ على مَكةَ من رحلةِ الشام، فرأت ما يُشْبه ذلك.

لقد رأت بِعَيْنَيْ رأسِها سَحابةً بيضاءَ تَصحَبُه حتى دارِها.

وعاد «مَيسرةُ» يقول:

إن الكَهَنَةَ والرُّهبانَ يَتَحدَّثُون في هذهِ الأيامِ عن نَبِيٍّ يَظهرُ في هذهِ البِلاد.. وأن هذا مَكْتُوبٌ في التَّوراةِ والإنْجيل.

وراح «مَيسرةُ» يُكمِلُ حديثه ويقول: